

# أسرار الصلاة

و الفرق و الموازنة بين ذوق الصلاة و السماع

للإمام العلامة أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي

الشهير بابن قيم الجوزية

٦٩١-٧٥١

يُنشر لأول مرة على الشبكة المعلوماتية

اعتنى به

أبو عبد الله همام الجزائري

٢٨/٠٤/٢٠٠٤م

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ربِّ يَسِّرْ وَاغْنِنِي يَا كَرِيمَ  
قال الإمام محمد بن أبي بكر بن القيم الجوزية رحمه الله تعالى .

### فصل<sup>٢٤</sup>

في الموازنة بين ذوق السَّماع وذوق الصلاة و القرآن ، و بيان أن أحد الذوقين  
مباين للآخر من كل وجه ، و أنه كلما قوي ذوق أحدهما و سلطانه ضعف  
ذوق الآخر و سلطانه.

#### الصلاة قرّة عيون المحبين و هدية الله للمؤمنين<sup>(١)</sup>

فاعلم أنه لا ريب أن الصلاة قرّة عيون المحبين ، و لذة أرواح الموحدين ، و  
بستان العابدين و لذة نفوس الخاشعين ، و محك أحوال الصادقين ، و ميزان  
أحوال السالكين ، و هي رحمةُ الله المهداة إلى عباده المؤمنين .  
هداهم إليها ، و عرفهم بها ، و أهداهم إليها على يد رسوله الصادق الأمين ،  
رحمة بهم ، و إكراماً لهم ، لينالوا بها شرف كرامته ، و الفوز بقربه لا حاجة منه

(١) — العناوين الجانبية من وضع مُحقق الرسالة

إليهم ، بل منة منه ، و تفضلاً عليهم ، و تعبد بها قلوبهم و جوارحهم جميعا ، و جعل حظ القلب العارف منها أكمل الحظين و أعظمهما ؛ و هو إقباله على ربه سبحانه ، و فرحه و تليذته بقربه ، و تنعمه بحبه ، و ابتهاجه بالقيام بين يديه ، و انصرافه حال القيام له بالعبودية عن الالتفات إلى غير معبوده ، و تكميله حقوق حقوق عبوديته ظاهرا و باطنا حتى تقع على الوجه الذي يرضاه ربه سبحانه .

و لما امتحن الله سبحانه عبده بالشهوة و أشباهها من داخل فيه و خارج عنه ، اقتضت تمام رحمته به و إحسانه إليه أن هيا له مأدبة قد جمعت من جميع الألوان و التحف و التحف و الخلع و الخلع و العطايا ، و دعاه إليها كل يوم خمس مرّات ، و جعل في كل لون من ألوان تلك المأدبة ، لذة و منفعة و مصلحة و وقار لهذا العبد ، الذي قد دعاه إلى تلك المأدبة ليست في اللون الآخر ، لتكمل لذة عبده في كل من ألوان العبودية و يُكرمه بكلّ صنفٍ من أصناف الكرامة ، و يكون كل فعل من أفعال تلك العبودية مُكفراً مذموم كان يكرهه بإزائه ، و يشبهه عليه نورا خاصا ، فإن الصلاة نور و قوة في قلبه و جوارحه و سعة في رزقه ، و محبة في العباد له ، و إن الملائكة لتفرح و كذلك بقاع الأرض ، و جبالها و أشجارها ، و أنهارها تكون له نورا و ثوابا خاصا يوم لقائه .

فيصدر المدعو من هذه المأدبة و قد أشبعه و قد أشبعه و أرواه ، و خلع عليه بخلع القبول ، و أغناه ، و ذلك أن قلبه كان قبل أن يأتي هذه المأدبة ، قد ناله من الجوع و القحط و الجذب و الظمأ و العري و السقم ما ناله ، فصدر من عنده و قد أغناه و أعطاه من الطعام و الشراب و اللباس و التحف ما يغنيه .

## تشبيه القلب بالأرض

و لما كانت الجذوب متتابعة على القلوب ، و قحطُ النفوس متوالياً عليها ، جدّد له الدعوة آلة هذه المأدبة وقتاً بعد وقت رحمة منه به، فلا يزال مُستسقياً ، طالبا إلى من بيده غيثُ القلوب ، و سَقِيْهَا مستمطراً سحائب رحمته لئلا يبيس ما أنبتته له تلك الرحمة من نبات الإيمان ، و كلاً الإحسان و عُشبه و ثماره ، و لئلا تنقطع مادة النبات من الروح و القلب ، فلا يزال القلب في استسقاء و استمطار هكذا دائماً ، يشكو إلى ربه جده ، و قحطه ، و ضرورته إلى سُقيا رحمته ، و غيث برّه ، فهذا دأب العبد أيام حياته.

فالقحط الذي يتزل بالقلب هو الغفلة ، فالغفلة هي قحط القلوب و جدبها ، و ما دام العبد في ذكر الله و الإقبال عليه فغيث الرحمة يتزل عليه كالمطر المتدارك ، فإذا غفل ناله من القحط بحسب غفلته قلة و كثرة ، فإذا تمكّنت الغفلة منه ، و استحكمت صارت أرضه خراباً ميتة ، و سنته جرداء يابسة ، و حريق الشهوات يعمل فيها من كل جانب كالسَّمائم.

فتصير أرضه بوراً بعد أن كانت مخصبة بأنواع النبات ، و الثمار و غيرها ، و إذا تدارك عليه غيث الرحمة اهتزت أرض إيمانه و أعماله و ربت ، و أنبتت من كلِّ زوج بهيج ، فإذا ناله القحط و الجذب كان بمثلة شجرة رطوبتها و خضرتها و لينها و ثمارها من الماء ، فإذا منعت من الماء يبست عروقها و ذبلت أغصانها ، و حُبست ثمارها ، و ربما يبست الأغصان و الشجرة ، فإذا مددت منها غصناً إلى نفسك لم يمتد ، و لم ينقذ لك ، و انكسر ، فحينئذ تقتضي حِكْمَة قِيَم البستان قطع تلك الشجرة و جعلها وقوداً للنار .

## القلب يبس إذا خلا من توحيد الله

فكذلك القلب ، إنما يبس إذا خلا من توحيد الله و حبه و معرفته و ذكره و دعائه ، فتصيبه حرارة النفس ، و نار الشهوات ، فتمتنع أغصان الجوارح من الامتداد إذا مددتها ، و الانقياد إذا قُدمتها ، فلا تصلح بعدُ هي و الشجرة إلا للنَّار { فويلٌ للقاسية قلوبهم مِّنَ ذكرِ الله أولئك في ضلالٍ مُّبينٍ } [الزمر : ٢٢] ، فإذا كان القلب ممطورا بمطر الرحمة ، كانت الأغصان لينة مُنقادة رطبة ، فإذا مددتها إلى أمر الله انقادت معك ، و أقبلت سريعة لينة وادعة ، فجنبت منها من ثمار العبودية ما يحمله كل غصن من تلك الأغصان و مادتها من رطوبة القلب و ريِّه ، فالمادة تعمل عملها في القلب و الجوارح ، و إذا يبس القلب تعطلت الأغصان من أعمال البر ؛ لأن مادة القلب و حياته قد انقطعت منه فلم تنتشر في الجوارح ، فتحمل كل جارحة ثمرها من العبودية ، و لله في كل جارحة من جوارح العبد عبودية تُخصُّه ، و طاعة مطلوبة منها ، خلقت لأجلها و هيئت لها .

## الناس ثلاثة أقسام في استعمال جوارحهم

و الناس بعد ذلك ثلاثة أقسام :

أحدهما : من استعمل تلك الجوارح فيما خلقت له ، و أريد منها ، فهذا هو الذي تاجر الله بأرباح التجارة ، و باع نفسه لله بأرباح البيع .

و الصلاة وُضعت لاستعمال الجوارح جميعها في العبودية تبعاً لقيام القلب بها و هذا رجلٌ عرّف نعمة الله فيما خلُق له من الجوارح و ما أنعم عليه من الآلاء ،

و النعم ، فقام بعبوديته ظاهراً و باطناً و استعمل جوارحه في طاعة ربّه ، و حفظ نفسه و جوارحه عمّا يُغضب ربه و يشينه عنده.

و الثاني : من استعمل جوارحه فيما لم تُخلق له ، بل حبسها على المخالفات و المعاصي ، و لم يطلقها ، فهذا هو الذي خابَ سعيه ، و خسرت تجارتها ، و فاته رضا ربّه عزّ و جل عنه ، و جَزِيل ثوابه ، و حصل على سخطه و أليم عقابه.

و الثالث : مَنْ عطّل جوارحه ، و أماتها بالبطالة و الجهالة، فهذا أيضا خاسر بائر أعظم خسارة من الذي قبله ، فإن العبد إنما خُلِق للعبادة و الطاعة لا للبطالة . و أبغض الخلق إلى الله العبد البطال الذي لا في شغل الدنيا و لا في سعي الآخرة. بل هو كلّ على الدنيا و الدين ، بل لو سعى للدنيا و لم يسع للآخرة كان مذموماً مخذولاً ، و كيف إذا عطّل الأمرين ، و إنّ امرء يسعى لدنياه دائما ، و يذهل عن أخراه ، لا شكّ خاسر.

### تمثيل هذه الأصناف الثلاثة

فالرجل الأول ، كرجل أقطع أرضا واسعة ، و أعين على عمارتها بآلات الحرث ، و البذر و أعطي ما يكفيها لسقيها و حرثها ، فحرثها و هيأها للزراعة ، و بذر فيها من أنواع الغلات ، و غرس فيها من أنواع الأشجار و الفواكه المختلفة الألوان ثم أحاطها بجائط ، و لم يهملها بل أقام عليها الحرس ، و حصنها من الفساد و المفسدين ، و جعل يتعاهدها كل يوم فيُصلح ما فسد منه ، و يغرس فيها عوض ما ييس ، و ينقي دغلها و يقطع شوكتها ، و يستعين بغلّتها على عمارتها.

و الثاني : بمتزلة رجل أخذ تلك الأرض ، و جعلها مأوى السباع و الهوام ، و موضعاً للحييف و الأنتان ، و جعلها معقلاً يأوي إليه فيها كل مفسد و مؤذٍ و لصٍّ ، و أخذ ما أعين به من حرثتها و بذارها و صلاحها ، فصرفه و جعله معونة و معيشة لمن فيها ، من أهل الشرِّ و الفساد.

و الثالث : بمتزلة رجل عطَّلها و أهملها و أرسل الماء ضائعاً في القفار و الصحارى فقعد مذموماً محسوراً.

فهذا مثال أهل اليقظة ، و أهل الغفلة ، و أهل الخيانة.

### أهل اليقظة و الغفلة الخيانة

فالأول : مثال أهل اليقظة ، والاستعداد لما خلقوا له.

و الثاني : مثال أهل الخيانة.

و الثالث : مثال لأهل الغفلة .

فالأول : إذا تحرَّك أو سَكَن ، أو قام أو قعد ، أو أكل أو شرب ، أو نام ، أو لبس ، أو نطق ، أو سكت كان كلُّه له لا عليه ، و كان في ذكر و طاعةٍ و قربة و مزيد .

و الثاني : إذا فعل ذلك كان عليه لا له ، و كان في طردٍ و إبعادٍ و خُسران .

و الثالث : إذا فعل ذلك كان في غفلة و بطالةٍ و تفريطٍ .

فالأول : يتقلَّب فيما يتقلب فيه بحكم الطاعة و القربة.

و الثاني : يتقلب في ذلك بحكم الخيانة و التعدي ، فإن الله لم يملكه ما ملكه ليستعين به على مخالفته ، فهو جان متعد خائن لله تعالى في نعمه عليه معاقب على التنعم بها في غير طاعته .

و الثالث : يتقلب في ذلك و يتناوله بحكم الغفلة و الهوى و نهممة النفس و طبعها ، لم يتمتع بذلك ابتغاء رضوان الله تعالى و التقرب إليه ، فهذا خسارانه بين واضح ، إذ عطل أوقات عمره التي لا قيمة لها عن أفضل الأرباح و التجارات . فدعا الله عباده المؤمنين الموحدين إلى هذه الصلوات الخمس ، رحمة منه بهم ، و هياً لهم فيها أنواع العبادة ؛ لينال العبد من كل قول و فعل و حركة و سكون حظه من عطاياه .

### ما هو سرّ الصلاة ؟ و تمثيل لذلك

و كان سرّ الصلاة و لبها إقبال القلب فيها على الله ، و حضوره بكلّيته بين يديه ، فإذا لم يقبل عليه و اشتغل بغيره و لهى بحديث نفسه ، كان بمنزلة وافد وفد إلى باب الملك معذرا من خطاياه و زلله مستمطرا سحائب جوده و كرمه و رحمته ، مستطعما له ما يقيت قلبه ، ليقوى به على القيام في خدمته ، فلما وصل إلى باب الملك ، و لم يبق إلا مناجته له ، التفت عن الملك وزاغ عنه يمينا و شمالا ، أو ولاه ظهره ، و اشتغل عنه بأمقت شيء إلى الملك ، و أقله عنده قدرا عليه ، فأثره عليه ، و صيره قلبة قلبه ، و محلّ توجهه ، و موضع سرّه ، و بعث غلماناه و خدمة ليقفوا في خدم طاعة الملك عوضا عنه و يعتذروا عنه ، و ينوبوا عنه في الخدمة ، و الملك يشاهد ذلك و يرى حاله مع هذا ، فكرم الملك وجوده و سعة برّه و إحسانه تأبي أن يصرف عنه تلك الخدم و الأتباع ، فيصيبه من رحمته و إحسانه ؛ لكن فرق بين قسمة الغنائم على أهل السُّهّمان من الغانمين ،



و بين الرضخ لمن لا سهم له : { و لكل درجات مما عملوا و يُوفّيهم أعمالهم  
و هم لا يظلمون } [الأحقاف : ١٩] ، و الله سبحانه و تعالى خلق هذا النوع  
الإنساني لنفسه و اختصه له ، و خلق كل شيء له ، و من أجله كما في الأثر  
الإلهي : " ابن آدم خلقتك لنفسي ، و خلقت كل شيء لك ، فبحقي عليك لا  
تشتغل بما خلقتك لك عمّا خلقتك له " .  
و في أثر آخر : " ابن آدم خلقتك لنفسي فلا تلعب و تكفلت برزقك فلا تتعب  
، ابن آدم اطلبني تجديني ، فإن و جدتني و جدت كل شيء ، و إن فُتت فأتك  
كل شيء ، و أنا أحب إليك من كل شيء " .  
و جعل سبحانه و تعالى الصلاة سببا موصلا إلى قُربه ، و مناجاته ، و محبته و  
الأنس به .

### ما بين الصلوات الخمسة تحدث الغفلة

و ما بين الصلاتين تحدث للعبد الغفلة و الجفوة و القسوة ، و الإعراض و الزلات  
، و الخطايا ، فيبعده ذلك عن ربه ، و ينحّيه عن قُربه ، فيصير بذلك كأنه  
أجنبيا من عبوديته ، ليس من جملة العبيد ، و ربما ألقى بيده إلى أسر العدو له  
فأسره ، و غلّه ، و قيّده ، و حبسه في سجن نفسه و هواه .  
فحظه ضيق الصدر ، و معالجة الموموم ، و الغموم ، و الأحزان ، و الحسرات ، و  
لا يدري السبب في ذلك . فاقتضت رحمه ربه الرحيم الودود أن جعل له من  
عبوديته عبودية جامعة ، مختلفة الأجزاء ، و الحالات بحسب اختلاف الأحداث  
التي كانت من العبد ، و بحسب شدّة حاجته إلى نصيبه من كل خير من أجزاء  
تلك العبودية .

## الكلام عن الوضوء

فبالوضوء يتطهر من الأوساخ ، و يُقدم على ربّه متطهرا ، و الوضوء له ظاهر و باطن :

فظاهره : طهارة البدن ، و أعضاء العبادة.

و باطنه و سرّه : طهارة القلب من أوساخ الذنوب و المعاصي و أدراجه بالتوبة ؛ و لهذا يقرن تعالى بين التوبة و الطهارة في قوله تعالى : { **إِن اللّٰهَ يَحِبُّ التَّوَّابِينَ وَ يَحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ** } [البقرة : ٢٢٢] و شرع النبي صلى الله عليه و سلم للمتطهّر أن يقول بعد فراغه من الوضوء أن يتشهد ثم يقول : "اللهم اجعلني من التّوّابين ، و اجعلني من المتطهّرين " .

فكمّل له مراتب العبدية و الطهارة ، باطنا و ظاهرا ، فإنه بالشهادة يتطهر من الشرك ، و بالتوبة يتطهر من الذنوب ، و بالماء يتطهر من الأوساخ الظاهرة . فشرع له أكمل مراتب الطهارة قبل الدخول على الله عز و جل ، و الوقوف بين يديه ، فلما طهر ظاهرا و باطنا ، أذن له بالدخول عليه بالقيام بين يديه و بذلك يخلص من الإباق.

و بمجيئه إلى داره ، و محل عبوديته يصير من جملة خدمه ، و لهذا كان المجيء إلى المسجد من تمام عبودية الصلاة الواجبة عند قوم و المستحبة عند آخرين.

## من تمام العبودية الذهاب للمسجد

و العبد في حال غفلته كالآبق من ربه ، قد عطّل جوارحه و قلبه عن الخدمة التي خلّق لها فإذا جاء إليه فقد رجع من إباقه ، فإذا وقف بين يديه موقف و التذلل و الانكسار ، فقد استدعى عطف سيّده عليه ، و إقباله عليه بعد الإعراض عنه .

## عبودية التكبير " الله أكبر " .

و أمر بأن يستقبل القبلة — بيته الحرام — بوجهه ، و يستقبل الله عز و جل بقلبه ، لينسلخ مما كان فيه من التولي و الإعراض ، ثم قام بين يديه مقام المتذلل الخاضع المسكين المستعطف لسيدّه عليه ، و ألقى بيديه مسلماً مستسلماً ناكس الرأس ، خاشع القلب مُطرق الطرف لا يلتفت قلبه عنه ، و طرفة عين ، لا يمّنة و لا يسرة ، خاشع قد توجه بقلبه كله إليه .

و أقبل بكليته عليه ، ثم كبره بالتعظيم و الإجلال و واطأ قلبه لسانه في التكبير فكان الله أكبر في قلبه من كل شيء ، و صدّق هذا التكبير بأنه لم يكن في قلبه شيء أكبر من الله تعالى يشغله عنه ، فإنه إذا كان في قلبه شيء يشتغل به عن الله دلّ على أن ذلك الشيء أكبر عنده من الله فإنه إذا اشتغل عن الله بغيره ، كان ما اشتغل به هو أهم عنده من الله ، و كان قوله " الله أكبر " بلسانه دون قلبه ؛ لأن قلبه مقبل على غير الله ، معظماً له ، مجلاً ، فإذا ما أطاع اللسان القلب في التكبير ، أخرجته من لبس رداء التكبير المنافي للعبودية ، و منعه من التفات قلبه إلى غير الله ، إذا كان الله عنده و في قلبه أكبر من كل شيء فمنعه حقّ قوله : الله أكبر و القيام بعبودية التكبير من هاتين الآفتين ، اللتين هما من أعظم الحُجب بينه و بين الله تعالى .

## عبودية الاستفتاح

فإذا قال : " سبحانك اللهم و بحمدك " و أثنى على الله تعالى بما هو أهله ، فقد خرج بذلك عن الغفلة و أهلها ، فإن الغفلة حجاب بينه و بين الله .

و أتى بالتحية و الشناء الذي يُخاطب به الملك عند الدخول عليه تعظيماً له و تمهيداً ، و كان ذلك تمجيذاً و مقدمة بين يدي حاجته .  
فكان في الشناء من آداب العبودية ، و تعظيم المعبود ما يستجلب به إقباله عليه ، و رضاه عنه ، و إسعافه بفضله حوائجه

### حال العبد في القراءة و الاستعاذة

فإذا شرع في القراءة قدّم أمامها الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم فإنه أحرص ما يكون على خُذلان العبد في مثل هذا المقام الذي هو أشرف مقامات العبد و أنفعها له في دنياه و آخرته ، فهو أحرص شيء على صرفه عنه ، و انتفاعه دونه بالبدن و القلب ، فإن عجز عن اقتطاعه و تعطيله عنه بالبدن اقتطع قلبه و عطّله ، و ألقى فيه الوسوس ليشغله بذلك عن القيام بحق العبودية بين يدي الرب تبارك و تعالى ، فأمر العبد بالاستعاذة بالله منه ليسلم له مقامه بين يدي ربه و ليحي قلبه ، و يستنير بما يتدبره و يتفهمه من كلام الله سيّده الذي هو سبب حياة قلبه ، و نعيمه و فلاحه ، فالشيطان أحرص شيء على اقتطاع قلبه عن مقصود التلاوة .

و لما علم الله سبحانه و تعالى حسد العدو للعبد ، و تفرّغه له ، و علم عجز العبد عنه ، أمره بأن يستعيد به سبحانه ، و يلتجئ إليه في صرفه عنه ، فيكتفي بالاستعاذة من مؤونة محاربتة و مقاومته ، و كأنه قيل له : لا طاقة لك بهذا العدو ، فاستعد بي أعينك منه ، و استجر بي أجيرك منه ، و أكفيك و أمنك منه .

## نصيحة ابن تيمية لابن القيم

و قال لي شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه و نور ضريحه يوماً : إذا هاش عليك كلب الغنم فلا تشتغل بمحاربته ، و مدافعته ، و عليك بالراعي فاستغث به فهو يصرف عنك الكلب ، و يكفيكه .

فإذا استعاذ الإنسان بالله من الشيطان الرجيم أبعد عنه .  
فأفضى القلب إلى معاني القرآن ، و وقع في رياضه المونقة و شاهد عجائبه التي تبهر العقول ، و استخرج من كنوزه و ذخائره ما عين رأت و لا أذن سمعت و لا خطر على قلب بشر ، و كان الحائل بينه و بين ذلك ، النفس و الشيطان ، فإن النفس منفعة للشيطان ، سامعة منه ، مطيعة فإذا بعد عنها ، و طرد ألم بها الملك ، و ثبتها و ذكرها بما فيه سعادتها و نجاتها .

فإذا أخذ العبد في قراءة القرآن ، فقد قام في مقام مخاطبة ربه و مناجاته ، فليحذر كل الحذر من التعرض لمقته و سخطه ، بأن يناجيه و يخاطبه ، و قلبه معرض عنه ، ملتفت ، إلى غيره ، فإنه يستدعي بذلك مقته ، و يكون بمرتلة رجل قربه ملك من ملوك الدنيا ، و أقامه بين يديه فجعل يخاطب الملك ، و قد ولأه قفاه ، أو التفت عنه بوجهه يمنة و يسرة ، فهو لا يفهم ما يقول الملك ، فما الظن بمقت الملك لهذا .

فما الظن بمقت الملك الحق المبين رب العالمين و قيوم السماوات و الأرضين .

## حَالُ الْعَبْدِ فِي الْفَاتِحَةِ

فينبغي بالمصلي أن يقف عند كل آية من الفاتحة وقفة يسيرة ، ينتظر جواب ربّه له ، و كأنه يسمعه و هو يقول : " حمدني عبدي " إذا قال : { الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } .

فإذا قال : { الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ } وقفَ لحظةً ينتظر قوله : " أثنى عليّ عبدي " .  
فإذا قال : { مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ } انتظر قوله : " مجّدي عبدي " .  
فإذا قال : { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } انتظر قوله تعالى : " هذا بيني و بين عبدي " .

فإذا قال : { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ } إلى آخرها انتظر قوله : " هذا لعبدي و لعبدي ما قال " .

و مَنْ ذاق طعم الصلاة عَلِمَ أنه لا يقوم مقام التكبير و الفاتحة غيرهما مقامها ، كما لا يقوم غير القيام و الركوع و السجود مقامها ، فلكلّ عبوديته من عبودية الصلاة سرٌّ و تأثيرٌ و عبودية لا تحصل في غيرها ، ثمّ لكل آية من آيات الفاتحة عبودية و ذوق و وجد يُخَصُّهَا لا يوجد في غيرها .

فعند قوله : { الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } تجد تحت هذه الكلمة إثبات كمال للرب و وصفا و اسما ، و تزيهه سُبْحَانَهُ و بحمده عن كلّ سوء ، فعلاً و وصفاً و اسماً ، و إنما هو محمود في أفعاله و أوصافه و أسمائه ، مُتَرَهَّ عن العيوب و النقائص في أفعاله و أوصافه و أسمائه .

فأفعاله كلّها حكمة و رحمة و مصلحة و عدل و لا تخرج عن ذلك ، و أوصافه كلّها أوصاف كمال ، و نعوت جلال ، و أسماءه كلّها حُسْنَى .

## من معاني الحمد

و حمده تعالى قد ملاً الدنيا و الآخرة ، و السموات و الأرض ، و ما بينهما و ما  
فيهما ، فالكون كله ناطق بحمده ، و الخلق و الأمر كله صادر عن حمده ، و  
قائم بحمده ، و وجوده و عدمه بحمده ، فحمده هو سبب وجود كل شيء  
موجود ، و هو غاية كل موجود ، و كل موجود شاهد بحمده ، فإرساله رسله  
بحمده ، و إنزاله كتبه بحمده ، و الجنة عُمِّرت بأهلها بحمده ، و النار عُمِّرت  
بأهلها بحمده ، كما أنّها إنّما وجدتا بحمده.

و ما أُطيع إلا بحمده ، و ما عُصي إلا بحمده ، و لا تسقط ورقة إلا بحمده ، و  
لا يتحرك في الكون ذرّة إلا بحمده ، فهو سبحانه و تعالى المحمود لذاته ، و إن لم  
يحمده العباد.

كما أنه هو الواحد الأحد ، و إن لم يوحدّه العباد ، و هو الإله الحقّ و إن لم  
يؤلّه ، سبحانه هو الذي حمد نفسه على لسان الحامد كما قال النبي صلى الله  
عليه و سلم : " إن الله تعالى قال على لسان نبيه : سَمِعَ اللهُ مَنْ حَمِدَهُ ".  
فهو الحامد لنفسه في الحقيقة على لسان عبده ، فإنه هو الذي أجري الحمد على  
لسانه و قلبه ، و أجرأؤه بحمده فله الحمد كله ، و له الملك كله ، و بيده الخير  
كله ، و إليه يرجع الأمر كله ، علانيته و سره .  
فهذه المعرفة نبذة يسيرة من معرفة عبودية الحمد ، و هي نقطة من بحر لُجِّي من  
عبوديته.

و من عبوديته أيضا : أن يعلم أن حمده لربه نعمة منه عليه ، يستحق عليها الحمد  
، فإذا حمده عليها استحق على حمده حمداً آخر ، و هلّم جراً.

فالعبد و لو استنفد أنفاسه كلّها في حمد ربه على نعمة من نعمه ، كان ما يجب عليه من الحمد عليها فوق ذلك ، و أضعاف أضعافه ، و لا يُحصي أحد البتّة ثناءً عليه بمحتمده ، و لو حمده بجميع المحامد فالعبد سائر إلى الله بكلّ نعمة من ربّه ، يحمده عليها ، فإذا حمده على صرفها عنه ، حمده على إلهامه الحمدُ .  
قال الأوزاعي : " سمعت بعض قوَّال ينشد في حمائم لك الحمدُ إمّا على نعمةٍ و إمّا على نقمة تُدفع " .

و من عبودية الحمد : شهود العبد لعجزه عن الحمد ، و أنّ ما قام به منه ، فالرب سبحانه هو الذي ألهمه ذلك ، فهو محمود عليه ، إذ هو الذي أجراه على لسانه و قلبه ، و لولا الله ما اهتدى أحد .

و من عبودية الحمد : تسليط الحمد على تفاصيل أحوال العبد كلها ظاهرها و باطنها على ما يجب العبد منها و ما يكره ، بل على تفاصيل أحوال الخلق كلّهم ، برّهم و فاجرهم ، علويهم و سفليهم ، فهو سبحانه المحمود على ذلك كلّ في الحقيقة ، و إن غاب عن شهود العبد حكمة ذلك ، و ما يستحق الرب تبارك و تعالى من الحمد على ذلك و الحمد لله : هو إلهام من الله للعباد ، فمستقل و مستكثر على قدر معرفة العبد بربه .

و قد قال النبي صلى الله عليه و سلم في حديث الشفاعة : " فأقع ساجداً فيلهمني الله محامداً حمده بما لم تخطر على بالي قط " .



## عبودية {رب العالمين}

ثم لقول العبد : : { رب العالمين } من العبودية شهود تفرّده سبحانه بالربوبية وحده ، و أنّه كما أنه رب العالمين ، و خالقهم ، و رازقهم ، و مدبّر أمورهم ، و موجدهم ، و مغنيهم ، فهو أيضا وحده إلههم ، و معبودهم ، و ملجأهم و مفزعهم عند النوائب ، فلا ربّ غيره ، و لا إله سواه.

### عنوان : عبودية { الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ }

و لقوله : { الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ } عبودية تخصه سبحانه ، و هي شهود العبد عموم رحمته.

و شمولها لكلّ شيء ، و سعتها لكلّ مخلوق و أخذ كلّ موجود بنصيبه منها ، و لاسيما الرحمة الخاصّة بالعبد و هي التي أقامته بين يدي ربه : أقم فلاناً — ففق بعض الآثار أن جبرائيل يقول كل ليلة أقم فلاناً ، و أنم فلاناً فبرحمته للعبد أقامه في خدمته يناجيه بكلامه ، و يتملقه و يسترحمه و يدعوه و يستعطفه و يسأله هدايته و رحمته ، و تمام نعمته عليه دنياه و أخراره فهذا من رحمته بعبد ، فرحمته وسعت كل شيء ، كما أن حمده وسع كل شيء ، و علمه وسع كل شيء ، { رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا } [ غافر : ٧ ] ، و غيره مطرود محروم قد فاتته هذه الرحمة الخاصّة فهو منفي عنها.

### عنوان عبودية { مالك يوم الدين }

و يعطى قوله { مالك يوم الدين } عبوديته من الذلّ و الانقياد ، و قصد العدل و القيام بالقسط ، و كفّ العبد نفسه عن الظلم و المعاصي ، و ليتأمل ما تضمنته من إثبات المعاد و تفرّد الربّ في ذلك بالحكم بين خلقه ، و أنه يومٌ يدين الله فيه الخلق بأعمالهم من الخير و الشر ، و ذلك من تفاصيل حمده ، و موجهه كما قال تعالى : { و قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ و قيل الحمد لله ربّ العالمين } [الزمر: ٧٥].  
و يروى أن جميع الخلائق يحمدونه يومئذ أهل الجنة و أهل النار ، عدلا و فضلا ،  
و لما كان قوله { الحمد لله رب العالمين } .  
إخبارا عن حمد عبده له قال : حمدني عبدي .

### ما معنى ( الشاء ) ( التمجيد )

و لما كان قوله { الرحمن الرحيم } إعادة و تكريرا لأوصاف كماله قال : " أثنى عليّ عبدي " ، فإنّ الشاء إنّما يكون بتكرار المحامد ، و تعداد أوصاف الحمود ، فالحمد ثناء عليه ، و { الرحمن الرحيم } وصفه بالرحمة .  
و لما وصف العبد ربه بتفرّده بملك يوم الدين و هو الملك الحق ، مالك الدنيا و الآخرة ؛ و ذلك متضمّن لظهور عدله ، و كبريائه و عظمته ، و وحدانيته ، و صدق رُسله ، سمّى هذا الشاء مجداً فقال : " مجّدني عبدي " فإنّ التمجيد هو :  
الثناء بصفات العظمة ، و الجلال ، و العدل ، و الإحسان .

### عبودية { إِيَّاكَ نَعْبُدُ }

فإذا قال : { إِيَّاكَ نَعْبُدُ و إِيَّاكَ نَسْتَعِين } انتظر جواب ربه له : " هذا بيني و بين عبدي ، و لعبدي ما سألت " .

و تأمل عبودية هاتين الكلمتين و حقوقهما ، و ميّز الكلمة التي لله سبحانه و تعالى ، و الكلمة التي للعبد ، و فقه سرّ كون إحداهما لله ، و الأخرى للعبد ، و ميّز بين التوحيد الذي تقتضيه كلمة { إِيَّاكَ نَعْبُدُ } و التوحيد الذي تقتضيه كلمة { و إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } ، و فقه سرّ كون هاتين الكلمتين في وسط السورة بين نوعي الثناء قبلهما ، و الدعاء بعدهما ، و فقه تقديم { إِيَّاكَ نَعْبُدُ } على { و إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } ، و تقديم المعمول على العامل مع الإتيان به مؤخراً أوجز و أخضر ، و سرّ إعادة الضمير مرّة بعد مرّة .

### تقديم العبادة على الاستعانة

قلت : أراد تقديم العبادة — و هي العمل — على الاستعانة ، فالعبادة لله و الاستعانة للعبد ، فالله هو المعبود ، و هو المستعان على عبادته ، فإياك نعبد ؛ أي إياك أريد بعبادتي ، و هو يتضمن العمل الصالح الخالص ، و العلم النافع الدال على الله ، معرفة و محبة ، و صدقا و إخلاصاً ، فالعبادة حق الرب تعالى على خلقه ، و الاستعانة تتضمن استعانة العبد بربه على جميع أموره ، و هي القول المتضمن قسم العبد.

فكل عبادة لا تكون لله و بالله فهي باطلة مضمحلة ، و كل استعانة تكون بالله و حده فهي خذلانٌ و ذل.

و تأمل علم ما ينفع العباد و ما يدفع عنهم كل واحد من هاتين الكلمتين من الآفة المنافية للعبودية نفعاً و دفعاً و كيف تدخل العبد هاتان الكلمتان في صريح العبودية.

## القرآن مداره على هذه الكلمة

و تأمل علم كيف يدور القرآن كلّ من أوّله إلى آخره عليهما ، و كذلك الخلق ، و الأمر و الثواب و العقاب و الدنيا و الآخرة ، و كيف تضمّنتا لأجل الغايات ، و أكمل الوسائل ، و كيف أتى بهما بضمير المخاطب الحاضر ، دون ضمير الغائب ، و هذا موضوع يستدعي كتاباً كبيراً ، و لولا الخروج عمّا نحن بصدده لأوضحناه و بسطناه ، فمن أراد الوقوف عليه فقد ذكرناه في كتاب : "مراحل السائرين بين منازل إياك نعبد و إياك نستعين " و في كتاب " الرسالة المصرية " .

## ضرورة العبد لقوله {اهدنا الصراط المستقيم}

ثم ليتأمل العبد ضرورته و فاقتة إلى قوله { اهدنا الصراط المستقيم } الذي مضمونه معرفة الحق ، و قصده و إرادته و العمل به ، و الثبات عليه ، و الدعوة إليه ، و الصبر على أذى المدعو إليه فباستكمال هذه المراتب الخمس يستكمل العبد الهداية و ما نقص منها نقص من هدايته .  
و لما كان العبد مفتقراً إلى هذه الهداية في ظاهره و باطنه ، بل و في جميع ما يأتيه ، و يذره من :

## أنواع الهدايات التي يفتقر لها العبد

- أمور فعلها على غير الهداية علماً و عملاً و إرادة ، فهو محتاج إلى التوبة منها و توبته منها هي من الهداية .
- و أمور قد هُدي إلى أصلها دون تفصيلها فهو محتاج إلى هداية تفاصيلها .

- و أمور قد هُدي إليها من وجهٍ دون وجهٍ ، فهو محتاجٌ إلى تمام الهداية في كمالها على الهدى المستقيم ، و أن يزداد هدى إلى هداه.
  - و أمور هو محتاج فيها إلى أن يحصل له من الهداية في مستقبلها مثل ما حصل له في ماضيها.
  - و أمور هو خال عن اعتقاد فيها فهو محتاج إلى الهداية فيها اعتقاداً صحيحاً.
  - و أمور يعتقد فيها خلاف ما هي عليه ، فهو محتاج إلى هداية تنسخ من قلبه ذلك الاعتقاد الباطل ، و تُثبت فيه ضده.
  - و أمور من الهداية : هو قادر عليها ، و لكن لم يخلق له إرادة فعلها ، فهو محتاج في تمام الهداية إلى خلق إرادة.
  - و أمور منها : هو غير قادر على فعلها مع كونه يريد لها ، فهو محتاج في هدايته إلى إقدار عليها.
  - و أمور منها : هو غير قادر عليها و لا يريد لها ، فهو محتاج إلى خلق القدرة عليها و الإرادة لها لتتم له الهداية.
  - و أمور : هو قائم بها على وجه الهداية اعتقاداً و إرادة ، و علماً و عملاً ، فهو محتاج إلى الثبات عليها و استدامتها ، فكانت حاجته إلى سؤال الهداية أعظم الحاجات ، و فاقتة إليها أشد الفاقات ، و لهذا فرض عليه الرب الرحيم هذا السؤال على العبيد كل يوم و ليلة في أفضل أحواله ، و هي الصلوات الخمسُ ، مرات متعددة ، لشدة ضرورته و فاقتة إلى هذا المطلوب.
  - ثم بين أن سبيل أهل هذه الهداية مغاير لسبيل أهل الغضب و أهل الضلال ، و هو اليهود ، و النصرى و غيرهم .
- فانقسم الخلق إذن إلى ثلاثة أقسام بالنسبة إلى هذه الهداية :
- مُنعم عليه : بحصولها له و استمرارها و حفظه من المنعم عليهم ، بحسب حفظه من تفاصيلها و أقسامها.

و ضالٌّ : لم يُعطَ هذه الهداية و لم يُوفق لها .  
و مغضوب عليه : عَرَفها و لم يوفق للعمل بموجبها.  
فالضال : حائد عنها ، حائر لا يهتدي إليها سبيلاً.  
و المغضوب عليه : متحيرٌ منحرف عنها ؛ لانحرافه عن الحق بعد معرفته به مع علمه بها.  
فالأول المنعم عليه قائم بالهدى ، و دين الحق علماً و عملاً و اعتقاداً و الضال عكسه ، منسلخ منه علماً و عملاً.  
و المغضوب عليه لا يرفع فيها رأساً ، عارف به علماً منسلخ عملاً ، و الله الموفق للصواب.  
و لولا أن المقصود التنبيه على المضادة و المنافرة التي بين ذوق الصلاة ، و ذوق السماع ، لبسطنا هذا الموضوع بسطاً شافياً ، و لكن لكلِّ مقام مقال ، فلنرجع إلى المقصود.

### عبودية التأمين و رفع اليدين

و شرع له التأمين في آخر هذا الدعاء تفاقؤلاً بإجابته ، و حصوله ، و طابعاً عليه ، و تحقيقاً له ، و لهذا اشتد حسدُ اليهود للمسلمين عليه حين سمعُوهم يجهرون به في صلاتهم.  
ثم شرع له رفع اليدين عند الركوع تعظيماً لأمر الله ، و زينةً للصلاة ، و عبودية خاصةً لليدين كعبودية باقي الجوارح ، و اتباعاً لسنة رسول الله صلى الله عليه و سلم فهو حلية الصلاة ، و زينتها و تعظيمٌ لشعائرها.

ثم شرع له التكبير الذي هو في انتقالات الصلاة من رُكن إلى ركن ، كالتلبية في انتقالات الحاجِّ ، من مشعر إلى مشعر ، فهو شعار الصلاة ، كما أن التلبية شعار الحج ، (مميز ليعلم أن سر الصلاة هو تعظيم الرب تعالى و تكبيره بعبادته وحده. )

## عبودية الركوع

ثم شرع له بأن يخضع للمعبود سبحانه بالركوع خضوعاً لعظمة ربه ، و استكانة لهيبته و تذللاً لعزته.

فثناء العبد على ربه في هذا الركن ؛ هو أن يحني له صلبه ، و يضع له قامته ، و ينكس له رأسه ، و يحني له ظهره ، و يكبره مُعظماً له ، ناطقاً بتسبيحه ، المقترن بتعظيمه.

فاجتمع له خضوع القلب ، و خضوع الجوارح ، و خضوع القول على أتم الأحوال ، و يجتمع له في هذا الركن من الخضوع و التواضع و التعظيم و الذكر ما يفرق به بين الخضوع لربه ، و الخضوع للعبيد بعضهم لبعض ، فإنَّ الخضوع وصف العبد ، و العظمة وصف الرب .

و تمام عبودية الركوع أن يتصاغر الراكع ، و يتضاءل لربه ، بحيث يمحو تصاغره لربه من قلبه كلّ تعظيم فيه لنفسه ، و لخالقه و يثبت مكانه تعظيمه ربه وحده لا شريك له .

## إذا عَظَّمَ القلبُ الربَّ خرجَ تعظيمُ الخلقِ

و كلما استولى على قلبه تعظيم الربِّ ، و قوى خرج منه تعظيم الخلق ، و ازداد تصاغره هو عند نفسه فالركوع للقلب بالذات ، و القصد و الجوارح بالتبع و التكملة.

ثم شرع له أن يحمد ربه ، و يثني عليه بآلائه عند اعتداله و انتصابه و رجوعه إلى أحسن هيئاته ، منتصب القامة معتدلاً فيحمد ربه و يثني عليه بآلائه عند اعتداله و انتصابه و رجوعه إلى أحسن تقويم ، بأن وفقه و هداه لهذا الخضوع الذي قد حرمه غيره.

## عبودية القيام

ثم نقله منه إلى مقام الاعتدال و الاستواء ، واقفاً في خدمته ، بين يديه كما كان في حالة القراءة في ذلك ، و لهذا شرع له من الحمد و المجد نظير ما شرع له من حال القراءة في ذلك.

و لهذا الاعتدال ذوقٌ خاص و حال يحصل للقلب ، و يخصه سوى ذوق الركوع و حاله ، و هو ركنٌ مقصود لذاته كركن الركوع و السجود سواء. و لهذا كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يُطيلُ كما يطيل الركوع و السجود ، و يُكثر فيه من الثناء و الحمد و التمجيد ، كما ذكرناه في هديه صلى الله عليه و سلم في صلواته و كان في قيام الليل يُكثر فيه من قول : " لربي الحمد ، لربي الحمد " و يكررها.



## عبودية السجود

ثم شرع له أن يكبر و يدنو و يختر ساجدا ، و يُعطي في سجوده كل غضو من أعضائه حظّه من العبودية ، فيضع ناصيته بالأرض بين يدي ربه ، مسندة راغما له أنفه ، خاضعا له قلبه ، و يضع أشرف ما فيه — و هو وجهه — بالأرض و لاسيما وجه قلبه مع وجهه الظاهر ساجدا على الأرض معفراً له وجهه و أشرف ما فيه بين يدي سيّده ، راغماً أنفه ، خاضعاً له قلبه و جوارحه ، متذللاً لعظمة ربه ، خاضعاً لعزّته ، منيباً إليه ، مستكيناً ذلاً و خضوعاً و انكساراً ، قد صارت أعالیه ملويةً لأسافله.

و قد طابق قلبه في ذلك حال جسده ، فسجد القلب للرب كما سجد الجسد بين يدي الله ، و قد سجد معه أنفه و وجهه ، و يداه و ركبته ، و رجلاه فهذا العبد هو القريب المقرّب فهو أقرب فهو ما يكون من ربه و هو ساجد .  
و شرع له أن يُقلّ فخذه عن ساقيه ، و بطنه عن فخذه و عَضُدَيْهِ عن جنبه ، ليأخذ كل جزءٍ منه حظّه من الخضوع لا يحملَ بعضه بعضاً .  
فأحرّ به به في هذه الحال أن يكون أقرب إلى ربه منه في غيرها من الأحوال كلّها ، كما قال النبي صلى الله عليه و سلم : " أقربُ ما يكونُ العبدُ من ربّه و هو ساجدٌ " . [رواه مسلم (٤٨٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه ] .  
و لما كان سجود القلب خضوعه التام لربّه أمكنه استدامة هذا السجود إلى يوم القيامة ، كما قيل لبعض السلف :

هل يسجد القلب ؟

## الصلاة مبناه على خمسة أركان

قال : " أي و الله سجدة لا يرفع رأسه منها حتى يلقي الله عزّ و جل ". [هذا القول عزاه ابن تيمية لسهل بن عبد الله التستري كما في مجموع الفتاوى (٢٨٧/٢١) (١٣٨/٢٣) ]

إشارة إلى إحيات القلب ، و ذلّه ، و خضوعه ، و تواضعه و إنابته و حضوره مع الله أينما كان ، و مراقبته له في الخلاء و الملاء ، و لما بنيت الصلاة على خمس : القراءة و القيام و الركوع و السجود و الذكر .

سمّيت باسم كل واحد من هذه الخمس :

فسمّيت " قياماً " لقوله : { قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا } [ المزمّل : ٢ ] ، و قوله : { وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ } [ البقرة : ٢٣٨ ] .

و " قراءة " لقوله : { وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا } [ الإسراء : ٧٨ ] ، { فاقْرءوا ما تيسر منه } [ المزمّل : ٤٨ ] .

و سمّيت " ركوعاً " لقوله : { وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ } [ البقرة : ٤٣ ] ، { وَ إِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ } [ المراسلات : ٤٨ ] .

و " سجوداً " لقوله : { فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ كُن مِّن السَّاجِدِينَ } [ الحجر : ٩٨ ] ، و قوله { وَ اسْجُدْ وَ اقْتَرِبْ } [ العلق : ١٩ ] .

و " ذكراً " لقوله : { فَاسْعُوا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ } [ الجمعة : ٩ ] ، { لَا تُلْهَكُمُ أَمْوَالُكُمْ وَ لَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ } [ المنافقون : ٩ ] .

و أشرف أفعالها السجود ، و أشرف أذكارها القراءة ، و أول سورة أنزلت على النبي صلى الله عليه و سلم سورة { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ } افتتحت بالقراءة ، و ختمت بالسجود ، فوضعت الركعة على ذلك ، أولها قراءة و آخرها سجود .

## حال العبد بين السجدين

ثم شرع له أن يرفع رأسه ، و يعتدل جالساً ، و لما كان هذا الاعتدال محفوفاً بسجودين ؛ سجود قبله ، و سجود بعده ، فينتقل من السجود إليه ، ثم منه إلى السجود الآخر ، كان له شأن ، فكان رسول الله صلى الله عليه و سلم يطيل الجلوس بين السجدين بقدر السجود يتضرع إلى ربه فيه ، و يدعو و يستغفره ، و يسأله رحمته ، و هدايته و رزقه و عافيته ، و له ذوق خاص ، و حال للقلب غير ذوق السجود و حالهن ؛ فالعبد في هذا القعود يتمثل جاثياً بين يدي ربه ، مُلقياً نفسه بين يديه ، مُعتذراً إليه مما جَنَاهُ ، راغباً إليه أن يغفر له و يرحمه ، مستعدياً له على نفسه الأمانة بالسوء.

## لماذا الاستغفار بين السجدين

و قد كان النبي صلى الله عليه و سلم يكرر الاستغفار في هذه الجلسة فيقول : " رب اغفر لي ، رب اغفر لي ، رب اغفر لي " ، و يكثر من الرغبة فيها إلى ربه . فمثل أيها المصلي نفسك فيها بمرتلة غريم عليه حق ، و أنت كفيل به ، و الغريم مماطل مخادع ، و أنت مطلوب بالكفالة ، و الغريم مطلوب بالحق ، فأنت تستعدي عليه حتى تستخرج ما عليه من الحق ؛ لتتخلص من المطالبة ، و القلب شريك النفس في الخير و الشر ، و الثواب و العقاب ، و الحمد و الذم . و النفس من شأنها الإباق و الخروج من رِقِّ العبودية ، و تضييع حقوق الله عو و جل و حقوق العباد التي قبلها ، و القلب شريكها إن قوي سلطانها و أسيرها ، و هي شريكته و أسيرته إن قوي سلطانه .

فشرع للعبد إذا رفع رأسه من السجود أن يجثو بين يدي الله تعالى مستعدياً على نفسه ، معتذراً من ذنبه إلى ربه و مما كان منها ، راغباً إليه أن يرحمه و يغفر له و يرحمه و يهديه و يرزقه و يعافيه ، ز هذه الخمس كلمات ، قد جمعت جماع خير الدنيا و الآخرة فإن العبد محتاج بل مضطر إلى تحصيل مصالحه في الدنيا و في الآخرة ، و دفع المضار عنه في الدنيا و الآخرة ، و قد تضمن هذا الدعاء ذلك كله.

فإن الرزق يجلب له مصالح دنياه و أخره و يجمع رزق بدنه و رزق قلبه و روحه ، و هو أفضل الرازقين.

و العافية تدفع مضارها.

و الهداية تجلب له مصالح أخره.

و المغفرة تدفع عنه مضار الدنيا و الآخرة.

و الرحمة تجمع ذلك كله. و الهداية تعم تفاصيل أموره كلها.

و شرع له أن يعود ساجداً كما كان ، و لا يكتفي منه بسجدة واحدة في

الركعة كما اكتفى منه بركوع واحد ؛ و ذلك لفضل السجود و شرفه و قرب

العبد من ربه و موقعه من الله عز و جل ، حتى إنّه أقرب ما يكون إلى ربه و هو

ساجد ، و هو أشهر في العبودية و أعرق فيها من غيره من أركان الصلاة ؛ و

لهذا جعل خاتمة الركعة ، و ما قبله كالمقدمة بين يديه ، فمحلّه من الصلاة محل

طواف الزيارة ، و كما أنه أقرب ما يكون العبد من ربه و هو ساجد ، فكذلك

أقرب ما يكون منه في المناسك و هو طائف كما قال ابن عمر لمن خطب ابنته و

هو في الطواف فلم يرد عليه فلما فرغ من الطواف قال : أتذكر أمراً من أمور

الدنيا و نحن نتراءى لله سبحانه و تعالى في طوافنا.

و لهذا و الله أعلم ، جعل الركوع قبل السجود تدريجاً و انتقالاً من الشيء إلى ما

هو أعلى منه.

## لماذا يكرر السجود مرتان

و شرع له تكرير هذه الأفعال و الأقوال ؛ إذ هي غذاء القلب و الروح التي لا قوام لهما إلا بها ، فكان تكريرها بمتزلة تكرير الأكل لقمة بعد لقمة حتى يشبع ، و الشرب نفسا بعد نفس حتى يروى ، فلو تناول الجائع لقمة واحدة ثم دفع الطعام من بين يديه فماذا كانت يغني عنه تلك اللقمة ؟ و ربما فتحت عليه باب الجوع أكثر مما به ؛ و لهذا قال بعض السلف : " مثل الذي يصلي و لا يطمئن في صلاته كمثل الجائع إذا قدم إليه طعام فتناول منه لقمة أو لقمتين ماذا تغني عنه ذلك".

و في إعادة كل قول أو فعل من العبودية و القرب ، و تتزيل الثانية متزلة الشكر على الأولى ، و حصول مزيد خير و إيمان من فعلها ، و معرفة و إقبال و قوة قلب ، و انشراح صدر و زوال درنٍ و وسخٍ عن القلب بمتزلة غسل الثوب مرّة بعد مرّة .

فهذه حكمة الله التي بهّرت العقول حكمته في خلقه و أمره ، و دلّت على كمال رحمته و لطفه ، و ما لم تحط به علماً منها أعلى و أعظم و أكبر و إنما هذا يسير من كثير منها.

فلما قضى صلاته و أكملها و لم يبق إلا الانصراف منها ، فشرع الجلوس في آخرها بين يدي ربه مُثنياً عليه بما هو أهله ، فأفضل ما يقول العبد في جلوسه هذه التحيات التي لا تصلح إلا لله ، و لا تليق بغيره.

## عبودية الجلوس للتشهد و معنى التحيات

و لما كان من عادة الملوك أن يحيوا بأنواع التحيات من الأفعال و الأقوال المتضمنة للخضوع لهم ، و الذل ، و الثناء عليهم و طلب البقاء ، و الدوام لهم ، و أن يدوم ملكهم.

فمنهم : من يحيي بالسجود و منهم من يحيي بالثناء عليه  
و منهم : من يحيي بطلب البقاء ، و الدوام له .  
و منهم : من يجمع له ذلك كله فيسجد له ، ثم يثني عليه ، ثم يدعي له بالبقاء و الدوام.

و كان الملك الحق المبين ، الذي كل شيء هالك إلا وجهه سبحانه أولى بالتحيات كلها من جميع خلقه ، و هي له بالحقيقة و هو أهلها ؛ و لهذا فسرت التحيات بالملك ، و فسرت بالبقاء و الدوام ، و حقيقتها ما ذكرته ، و هي تحيات المُلْك و المَلِك و المَلِيك.

فالله سبحانه هو المتصف بجميع ذلك ، فهو أولى به فهو سبحانه المُلْك ، و له المُلْك ، فكل تحية تحي بها ملك من سجود أو ثناء ، أو بقاء ، أو دوام فهي لله على الحقيقة ؛ و لهذا أتى بها مجموعة معرفة بالألف و اللام إرادة للعموم ، و هي جمع تحية ، تحيا بها الملوك ، و هي " تُفَعِّلَة " من الحياة ، و أصلها " تحييه " على وزن " تكرمه " ، ثم أدغم إحدى اليائين في الآخر فصارت " تحيَّة " فإذا كان أصلها من الحياة ، و المطلوب منها لمن تحي بها دوام الحياة ، كما كانوا يقولون للملوكهم :

لك الحياة الباقية ، و لك الحياة الدائمة.

و بعضهم يقول : عش عشرة آلاف سنة.

و اشتق منها :

أدام الله أيامك أو أيامه ، و أطال الله بقاءك .  
و نحو ذلك مما يراد به دوام الحياة و الملك ، فذلك جميعه لا ينبغي إلا لله الحي  
القيوم الذي لا يموت .  
الذي كل ملكٍ سواه يموت ، و كل مُلكٍ سوى ملكه زائل .

### عطف الصلوات و الطيبات

ثم عطف عليها الصلوات بلفظ الجمع و التعريف ؛ ليشمل ذلك كلّمًا أُطلق عليه  
لفظ الصلاة خصوصا و عموماً ، فكّلّها لله و لا تنبغي إلا له ، فالتحيات له ملكاً  
، و الصلوات له عبودية و استحقاقاً ، فالتحيات لا تكون إلا لله ، و الصلوات لا  
تنبغي إلا له .

ثم عطف عليها بالطيبات ، و هذا يتناول أمرين : الوصف و الملك .  
فأما الوصفُ : فإنه سبحانه طيّب ، و كلامه طيّبٌ ، و فعله كلّهُ طيب ، و لا  
يصدر منه إلا طيّب ، و لا يضاف إليه إلا الطيّب ، و لا يصعد إليه إلا الطيّب .

### معنى الطيبات

فالطيبات له وصفاً و فعلاً و قولاً و نسبةً ، و كلّ طيّب مضاف إليه طيّب ، فله  
الكلمات الطيبات و الأفعال ، و كلّ مضاف إليه كبيته و عبده ، و روحه و  
ناقته ، و جنته دار الطيبين ، فهي طيبات كلّها ، و أيضا فمعاني الكلمات  
الطيبات لله وحده ، فإنها تتضمن تسبيحه ، و تحميده ، و تكبيره ، و تمجيده ، و  
الثناء عليه بالآئه و أوصافه ؛ فهذه الكلمات الطيبات التي يثنى عليه بها ، و

معانيها له وحده لا شريك له : كسبحانك اللهم و بحمدك وتبارك اسمك و تعالى  
جدك و لا إله غيرك.

و كسبحان الله و الحمد لله ، و لا إله إلا الله ، و الله أكبر .  
و سبحان الله و بحمده ، سبحان الله العظيم ، و نحو ذلك . و كلّ طيّب له و  
عنده و منه و إليه ، و هو طيّب لا يقبل إلا طيباً ، و هو إله الطيبين و ربهم ، و  
جيرانه في دار كرامته ، هم الطيبون .

### أطيب الكلام بعد القرآن

فتأمل أطيب الكلمات بعد القرآن ، كيف لا تنبغي إلا لله ؟ و هي : سبحان الله  
و الحمد لله و لا إله إلا الله و الله أكبر و لا حول و لا قوة إلا بالله ، فإن "  
سبحان الله " تتضمن تزيهه عن كل نقص و عيب و سوء عن خصائص  
المخلوقين و شبههم .  
و " الحمد لله " تتضمن إثبات كلّ كمال له قولاً ، و فعلاً ، و وصفاً على أتمّ  
الوجوه ، و أكملها أزلاً و أبداً .  
و " لا إله إلا الله " تتضمن انفراده بالإلهية ، و أن كل معبود سواه باطل ، و أنه  
وحده الإله الحق ، و أن من تأله غيره فهو بمرتلة من اتخذ بيتاً من بيوت العنكبوت  
، يأوي إليه ، و يسكنه من الحرّ و البرد ، فهل يغني عنه ذلك شيئاً .  
و " الله أكبر " تتضمن أنه أكبر من كلّ شيء ، و أجل ، و اعظم ، و أعز و  
أقوى و أمتع ، و أقدر ، و اعلم ، و أحكم ، فهذه الكلمات لا تصح هي و  
معانيها إلا لله وحده .



## عبودية التّسليم على الأنبياء و الصالحين

ثم شرع له أن يسلم على سائر عباد الله الصالحين ، و هم عباده الذين اصطفى بعد الثناء ، و تقديم الحمد لله فطابق ذلك قوله : { قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى } [النمل : ٥٩] ، و كأنه امتثال له ، و أيضا فإن هذا تحية المخلوق فشرعت بعد تحية الخالق و قدم في هذه التحية أولى الخلق بها و هو النبي صلى الله عليه و سلم ، الذي نالت أمته على يده كل خير ، و على نفسه ، و بعده و على سائر عباد الله الصالحين ، و أخصهم بهذه التحية الأنبياء و الملائكة ، ثم أصحاب محمد صلى الله عليه و سلم ، و أتباع الأنبياء مع عمومها كل عبد صالح في السماء و الأرض .  
ثم شرع له بعد هذه التحية السلام على من يستحق السلام عليه خصوصا و عموماً .

## معنى الشهادتين في التحيات

ثم شرع له أن يشهد شهادة الحق التي بنيت عليها الصلاة ، و الصلاة حق من حقوقها ، و لا تنفعه إلا بقرينتها و هي الشهادة للرسول صلى الله عليه و سلم بالرسالة ، و ختمت بها الصلاة كما قال عبد الله بن مسعود : " فإذا قلت ذلك فقد قضيت صلاتك ، فإن شئت فقم و إن شئت فاجلس " .  
و هذا إما أن يحمل على انقضائها إذا فرغ منه حقيقة ، كما يقوله الكوفيون ، او على مقاربة انقضائها و مشارفته ، كما يقول أهل الحجاز و غيرهم ، و على التقديرين فجعلت شهادة الحق خاتمة الصلاة . كما شرع أن تكون هي خاتمة الحياة .

"فمن كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة " .

و كذلك شرع للمتوضى أن يختتم وضوءه بالشهادتين ، ثم لما قضى صلاته أذن له أن يسأل حاجته.

### الصلاة على النبي

و شرع له أن يتوسل قبلها بالصلاة على النبي صلى الله عليه و سلم ، فإنها من أعظم الوسائل بين يدي الدعاء ، كما في السنن عن فضالة بن عبيد أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : "إذا دعا أحدكم فليبدأ بحمد الله ، و الثناء عليه ، و ليصل على رسوله ثم ليسل حاجته".  
ثم جعل الدعاء لآخر الصلاة كالتيمم عليها.  
فجاءت التحيات على ذلك ، أولها حمدُ الله ، و الثناء عليه ثم الصلاة على رسوله ثم الدعاء آخر الصلاة ، و أذنَ النبي صلى الله عليه و سلم للمصلي بعد الصلاة عليه أن يتخير من المسألة ما يشاء.

### سنن الأذان الخمس

و نظير هذا ما شرع لمن سمع الأذان :  
أن يقول كما يقول المؤذن.  
و أن يقول رضيت بالله ربا ، و بالإسلام ديناً ، و بمحمد رسولاً.  
و أن يسأل الله لرسوله الوسيلة و الفضيلة ، و أن يبعثه المقام المحمود.  
ثم ليصل عليه .  
ثم يسأل حاجته.  
فهذه خمس سنن في إجابة المؤذن لا ينبغي الغفلة عنها.

# فصل

## سرّ الصلاة الإقبال على الله

و سرّ الصلاة و روحها و لبُّها ، هو إقبال العبد على الله بكلّيته فيها ، فكما أنه لا ينبغي أن يصرف وجهه عن القبلة إلى غيرها فيها ، فكذلك لا ينبغي له أن يصرف قلبه عن ربّه إلى غيره فيها.

بل يجعل الكعبة — التي هي بيت الله — قبلة وجهه و بدنه ، و رب البيت تبارك و تعالى قبلة قلبه و روحه ، و على حسب إقبال العبد على الله في صلاته ، يكون إقبال الله عليه ، و إذا أعرضَ أعرضَ الله عنه ، كما تدين تُدان.

## للإقبال على الله في الصلاة ثلاث منازل

و الإقبال في الصلاة على ثلاثة منازل:

\* إقبال العبد على قلبه فيحفظه و يصلحه من أمراض الشهوات و الوسوس ، و الخطرات المبطلة لثواب صلاته أو المنقصة لها.

\* و الثاني : إقباله على الله بمراقبته فيها حتى يعبده كأنه يراه.

\* و الثالث : إقباله على معاني كلام الله ، و تفاصيله و عبودية الصلاة ليعطيها حقها من الخشوع و الطمأنينة و غير ذلك.

فباستكمال هذه المراتب الثلاث يكون قد أقام الصلاة حقاً ، و يكون إقبال الله على المصلي بحسب ذلك.

## كيف يكون الإقبال في كل جزء من أجزاء الصلاة

فإذا انتصب العبد قائماً بين يديه ، فإقباله على قيومية الله و عظمته فلا يتفلت يمنة و لا يسرة.

و إذا كَبَّرَ الله تعالى كان إقباله على كبريائه و إجلاله و عظمته.  
و كان إقباله على الله في استفتاحه على تسبيحه و الثناء عليه و على سُبُحات وجهه ، و تزيهه عمّا لا يليق به ، و يثني عليه بأوصافه و كماله.  
فإذا استعاذ بالله من الشيطان الرجيم ، كان إقباله على ركنه الشديد ، و سلطانه و انتصاره لعبده ، و منعه له منه و حفظه من عدوه.  
و إذا تلى كلامه كان إقباله على معرفته في كلامه كأنه يراه و يشاهده في كلامه كما قال بعض السلف : لقد تجلّى الله لعباده في كلامه.

و الناس في ذلك على أقسام و لهم في ذلك مشارب ، و أذواق فمنهم البصير ، و الأعمور ، و الأعمى ، و الأصم ، و الأعمش ، و غير ذلك ، في حال التلاوة و الصلاة ، فهو في هذه الحال ينبغي له أن يكون مقبلاً على ذاته و صفاته و أفعاله و أمره و نهيهِ و أحكامه و أسمائه.

و إذا ركع كان إقباله على عظمة ربه ، و إجلاله و عزه و كبريائه ، و لهذا شرع له في ركوعه أن يقول : " سبحان ربي العظيم " .

فإذا رفع رأسه من الركوع كان إقباله على حمد ربه و الثناء عليه و تمجيده و عبوديته له و تفرده بالعطاء و المنع.

فإذا سجد ، كان إقباله على قربهِ ، و الدنو منه ، و الخضوع له و التذلل له ، و الافتقار إليه و الانكسار بين يديه ، و التملق له.

فإذا رفع رأسه من السجود جثى على ركبتيه ، و كان إقباله على غنائه وجوده ،  
و كرمه و شدة حاجته إليهنّ ، و تضرعه بين يديه و الانكسار ؛ أن يغفر له و  
يرحمه ، و يعافيه و يهديه و يرزقه .

فإذا جلس في التشهد فله حال آخر ، و إقبال آخر يشبه حال الحاج في طواف  
الوداع ، و استشعر قلبه الانصراف من بين يدي ربه إلى أشغال الدنيا و العلائق  
و الشواغل التي قطعه عنها الوقوف بين يدي ربه و قد ذاق قلبه التأم و العذاب  
بما قبل دخوله في الصلاة ، فباشر قلبه روح القرب ، و نعيم الإقبال على الله  
تعالى ، و عافيته منها و انقطاعها عنه مدة الصلاة ، ثم استشعر قلبه عوده إليها  
بخروجه من حمى الصلاة ، فهو يحمل همّ انقضاء الصلاة و فراغه منها و يقول :  
ليتها اتصلت بيوم اللقاء .

و يعلم أنه ينصرف من مناجاة من كلّ السعادة في مناجته ، إلى مناجاة من كان  
الأذى و الهم و الغم و النكد في مناجاته ، و لا يشعر بهذا و هذا إلا من قلبه حي  
معمور بذكر الله و محبته ، و الأنس به ، و من هو عالم بما في مناجاة الخلق و  
رؤيتهم ، و مخالطتهم من الأذى و النكد ، و ضيق الصدر و ظلمة القلب ، و  
فوات الحسنات ، و اكتساب السيئات ، و تشتت الذهن عن مناجاة الله تعالى  
عز و جل .

### الكلام على التسليم

و لما كان العبد بين أمرين من ربه عز و جل :  
أحدهما : حكم الرب عليه في أحواله كلها ظاهرا و باطنا ، و اقتضاؤه من القيام  
بعبودية حكمه ، فإن لكلّ حكم عبودية تخصه ، أعني الحكم الكوني القدرى .  
و الثاني : فعل ، يفعل العبد عبودية لربه ، و هو موجب حكمه الديني الأمري .

و كلا الأمرين يوجبان بتسليم النفس إلى الله سبحانه ، و لهذا اشتق له اسم الإسلام من التسليم ، فإنه لما سلّم لحكم ربه الديني الأمرى ، و لحكمه الكونى القدرى ، بقيامه بعبودية ربه فيه لا باسترساله معه فى الهوى ، و الشهوات ، و المعاصى ، و يقول : قدّر علىّ استحق اسم الإسلام فقيل له : مسلم.

### الشروع فى بيان ثمرات الخشوع

و لما اطمأن قلبه بذكر الله ، و كلامه ، و محبته و عبوديته سكن إلى ربه ، و قرب منه ، و قرّت به عينه فنال الأمان بإيمانه و نال السعادة بإحسانه ، و كان قيامه بهذين الأمرين أمراً ضرورياً اه لا حياة له ، و لا فلاح و لا سعادة إلا به . و لما كان ما بُلي به من النفس الأمارة ، و الهوى المقتضى لمراها و الطباع المطالبة ، و الشيطان المغوي ، يقتضون منه إضاعة حظه من ذلك ، أو نقصانه ، اقتضت رحمة ربه العزيز الرحيم أن شرّع له الصلاة مُخْلِفة عليه ما ضاع عليه من ذلك ، رادّة عليه ما ذهب منه ، مجددة له ما ذهب من عزمه و ما فقده ، و ما أخلق من إيمانه ، و جعل بين كل صلاتين برزخاً من الزمان حكمة و رحمة ، ليُجمّ نفسه ، و يمحو بها ما يكتسبه من الدرر ، و جعل صورتها على صورة أفعاله ، خشوعاً و خضوعاً و انقياداً و تسليمياً و أعطى كل جارحة من جوارحه حظّها من العبودية ، و جعل ثمرتها و روحها إقباله على ربه فيها بكلّيته ، و جعل ثوابها و محلها الدخول عليه تبارك و تعالى ، و التزّين للعرض عليه تذكيراً بالعرض الأكبر عليه يوم القيامة.

## لكل شيء ثمرة و ثمرة الصلاة الإقبال على الله

و كما أن الصوم ثمرته تطهير النفس ، و ثمرة الزكاة تطهير المال ، و ثمرة الحج و جوب المغفرة ، و ثمرة الجهاد تسليم النفس إليه ، التي اشتراها سبحانه من العباد ، و جعل الجنة ثمنها ؛ فالصلاة ثمرتها الإقبال على الله ، و إقبال الله سبحانه على العبد ، و في الإقبال على الله في الصلاة جميع ما ذكر من ثمرات الأعمال و جميع ثمرات الأعمال في الإقبال على الله فيها.

و لهذا لم يقل النبي صلى الله عليه و سلم : جعلت قرّة عيني في الصوم ، و لا في الحج و العمرة ، و لا في شيء من هذه الأعمال و إنما قال : " و جعلت قرّة عيني في الصلاة " .

و تأمل قوله : " و جعلت قرّة عيني في الصلاة " و لم يقل : " بالصلاة " ، إعلاماً منه بأن عينه لا تقر إلا بدخوله كما تقر عين المحب بملابسته لمحجوبه و تقر عين الخائف بدخول في محل أنسه و أمنه ، فقرة العين بالدخول في الشيء أم و أكمل مت قرّة العين به قبل الدخول فيه ، و لما جاء إلى راحة القلب من تعب و نصبه قال : " يا بلال أرحنا بالصلاة " .

### لماذا الراحة بالصلاة ؟

أي أقمها لنستريح بها من مقاساة الشواغل كما يستريح التعبان إذا وصل إلى مأمنه و منزله و قرّ فيه ، و سكن و فارق ما كان فيه من التعب و النصب .  
و تأمل كيف قال : " أرحنا بالصلاة " و لم يقل : " أرحنا منها " ، كما يقوله المتكلف الكاره لها ، الذي لا يصلّيها إلا على إغماض و تكلف ، فهو في عذاب ما دام فيها ، فإذا خرج منها وجد راحة قلبه و نفسه ؛ و ذلك أنّ قلبه ممتلئ

بغيره ، و الصلاة قاطعة له عن أشغاله و محبوباته الدنيوية ، فهو معذب بها حتى يخرج منها ، و ذلك ظاهر في أحواله فيها ، من نقرها ، و التفات قلبه إلى غير ربه ، و ترك الطمأنينة و الخشوع فيها ، و لكن قد عَلِمَ أَنَّهُ لا بدّ له من أدائها ، فهو يؤديها على أنقص الوجوه ، قائل بلسانه ما ليس في قلبه و يقول بلسان قلبه حتى نصلي فنستريح من الصلاة ، لا بها .  
فهذا لونٌ و ذلك لونٌ آخر .

ففرق بين مَنْ كانت الصلاة لجوارحه قيئاً ثقيلاً ، و لقلبه سجنًا ضيقًا حرجًا ، و لنفسه عائقًا ، و بين مَنْ كانت الصلاة لقلبه نعيمًا ، و لعينه قرّة و لجوارحه راحة ، و لنفسه بستانًا و لذّة .

**فالأول :** الصلاة سجن لنفسه ، و تقييد لجوارحه عن التورط في مساقط الهلكات ، و قد ينال بها التكفير و الثواب ، أو ينال من الرحمة بحسب عبوديته لله تعالى فيها ، و قد يعاقب على ما نقص منها .

**و القسم الآخر :** الصلاة بستان له ، يجد فيها راحة قلبه ، و قرّة عينه ، و لذّة نفسه ، و راحة جوارحه ، و رياض روحه ، فهو فيها في نعيم يتفكّه ، و في نعيم يتقلّب يوجب له القرب الخاص و الدنو ، و المتزلة العالية من الله عزّ و جل ، و يشارك الأولين في ثوابهم ، بل يختص بأعلاه ، و ينفرد دونهم بعلو المتزلة و القربة ، التي هي قدر زائد على مجرد الثواب .

### من فوائد الصلاة القرب من الله

و لهذا تعدّ الملوك من أرضاهم بالأجر و التقريب ، كما قال السحرة لفرعون : { **إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ** } [الشعراء: ٤١] ، { **قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمَنْ الْمُقْرَبِينَ** } [الأعراف : ١١٤] .



فوعدهم بالأجر و القرب ، و هو علو المترلة عنده.

**فالأول :** مثله مثل عبد دخل الدار ، دار الملك ، و لكن حيل بينه و بين رب الدار بسترٍ و حجاب ، فهو محجوب من وراء الستر فلذلك لم تقرر عينه بالنظر إلى صاحب الدار و النظر إليه ؛ لأنه محجوب بالشهوات ، و غيوم الهوى و دخان النفس ، و بخار الأمانى ، فالقلب منه بذلك و بغيره عليل ، و النفس مُكبَّة على ما هواه ، طالبة لحظها العاجل. فلهذا لا يريد أحد من هؤلاء الصلاة إلا على إغماض ، و ليس له فيها راحة ، و لا رغبة و لا رهبة فهو في عذاب حتى يخرج منها إلى ما فيه قرّة عينه من هواه و دنياه.

**و القسم الآخر :** مثله كمثل رجلٍ دخل دار الملك ، و رفع الستر بينه و بينه ، فقرّرت عينه بالنظر إلى الملك ، بقيامه في خدمته و طاعته ، و قد أتخفه الملك بأنواع التحف ، و أدناه و قربه ، فهو لا يحب الانصراف من بين يديه ، لما يجده من لذة القرب و قرّة العين ، و إقبال الملك عليه ، و لذة مناجاة الملك ، و طيب كلامه ، و تذللّه بين يديه ، فهو في مزيد مناجاة ، و التحف وافدة عليه من كلّ جهة ، و مكتن و قد اطمأنت نفسه ، و خشع قلبه لربه و جوارحه ، فهو في سرورٍ و راحةٍ يعبد الله ، كأنه يراه ، و تجلّى له في كلامه ، فأشد شيء عليه انصرافه من بين يديه ، و الله الموفق المرشد المعين ، فهذه إشارة و نبذة يسيرة في ذوق الصلاة ، و سرّ من أسرارها و تجلّ من تجلياتها.

# فصل

## الفرق بين أهل السماع و أهل الصلاة

فنحن نناشد أهل السماع بالله الذي لا إله إلا هو ، هل يجدون في سماعهم مثل هذا الذوق أو شيء منه؟ بل نناشدهم بالله ، هل يدعهم السماع يجدون بعض هذا الذوق في صلاتهم أو جزءاً يسيراً منها؟ بل هل نَشَقُّوا من هذا الذوق رائحة ، أو شموا منه شمة قط ؟ و نحن نحلف ، عنهم أن ذوقهم في صلاتهم و سماعهم صد هذا الذوق ، و مشربهم ضد هذا المشرب .

و لولا خشية الإطالة لذكرنا بُدَّة من ذوقهم في سماعهم ، تدلُّ على ما ورائها . و لا يخفى على من له أدنى عقل ، و حياة قلب ، الفرق بين ذوق الآيات ، و ذوق الأبيات ، و بين ذوق القيام بين يدي رب العالمين ، و القيام بين يدي المغنين ، و بين ذوق اللذة و النعيم بمعاني ذكر الله تعالى و التلذذ بكلامه ، و ذوق معاني الغناء ، و التطريب الذي هو رقية الزنا ، و قرآن الشيطان ، و التلذذ بمضمونها فما اجتمع و الله الأمران في قلب إلا و طرد أحدهما الآخر ، و لا تجتمع بنت رسول الله و بنت عدو الله عز و جل عند رجلٍ أبداً ، و الله سبحانه و تعالى أعلم .

# فصل

فمتى تجئ الأذواق الصحيحة المستقيمة إلى قلوب قد انحرفت أشد الانحراف عن هدي نبيها صلى الله عليه و سلم ، و تركت ما كان عليه هو و أصحابه و السلف الصالح ، فإنهم كانوا يجدون الأذواق الصحيحة المتصلة بالله عز و جل في الأعمال : الصلاة المشروعة ، و في قراءة القرآن ، و تدبره و استماعه ، و أجر ذلك ، و في مزاحمة العلماء بالركب ، و في الجهاد في سبيل الله ، و في الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر ، و في الحب في الله و البغض فيه ، و توابع ذلك ، فصار ذوق المتأخرين — إلا من عصمه الله — في اليراع و الدف ، و المواصيل ، و الأغاني المطربة من الصور الحسان و الرقص ، و الضجيج ، و ارتفاع الأصوات ، و تعطيل ما يحبه الله ، و يرضاه من عبادته المخالفة لهوى النفس . فشتان بين ذوق الألبان و ذوق القرآن و بين ذوق العود و الطنبور ، و ذوق المؤمنين و النور ، و بين ذوق الزمر و ذوق الزمر ، و بين ذوق الناي و ذوق { اقتربت الساعة و انشق القمر } [القمر : ١٠١] و بين ذوق المواصيل و الشبابات و ذوق يس و الصافات ، و بين ذوق غناء الشعر و ذوق سورة الشعراء ، و بين ذوق سماع المكاء و التصدية و ذوق الأنبياء .

و بين الذوق على سماع تُذكر فيه العيون السود و الخصور و القدود ، و ذوق سماع سورة يونس و هود ، و بين ذوق الواقفين في طاعة الشيطان على أقدامهم صواف ، و ذوق الواقفين في خدمة الرحمن في سورة الأنعام و الأعراف ، و بين ذوق الواجدين على طرب المثالث و المثاني ، و ذوق العارفين عند استماع القرآن العظيم و السبع المثاني ، و بين ذوق أولى الأقدام الصفات في حظيرة سماع الشيطان ، و ذوق أصحاب الأقدام الصفات بين يدي الرحمن .

سبحان الله هكذا تنقسم و المواجيد ، و يتميز خُلق المطرودين من خُلق العبيد ،  
و سبحان الممد لهؤلاء و هؤلاء من عطائه و المفارق بينهم في الكرامة يوم القيامة  
، فوالله لا يجتمع محبو سماع قرآن الشيطان و محب سماع كلام الرحمن في قلب  
رجل واحد أبداً.

كما لا تجتمع بنت عدو الله و بنت رسول الله عند رجل واحد أبداً.

أنت القتل بكلِّ من أحببته \*\* فاحتر لنفسك في الهوى من تصطفي

### سماع أهل الحق

كان أصحاب محمد صلى الله عليه و سلم و رضي الله عنهم ، إذا اجتمعوا و  
اشتاقوا إلى حاد يحدو بهم ، ليطيب لهم السير ، و محرك يحرك قلوبهم إلى محبوبهم ،  
أمرؤا واحدا منهم يقرأ و الباؤون يستمعون ، فتطمئن قلوبهم ، و تفيض عيونهم و  
يجدون من حلاوة الإيمان أضعاف ما يجده السماعية من حلاوة السماع.  
و كان عمر بن الخطاب إذا جلس عنده أبو موسى يقول : يا أبا موسى ذكرنا  
ربنا ، فيأخذ أبو موسى ، في القراءة ، و تعمل تلك الأقوال في قلوب القوم  
عملها ، و كان عثمان بن عفان يقول : لو طهرت قلوبنا لما شبت من كلام  
الله.

و أي و الله ، كيف تشبع من كلام محبوبهم و فيه نهاية مطلوبهم ؟ و كيف تشبع  
من القرآن ؟ و إنما فتحت به لا بالغناء و الألحان!؟

و إذا مرضنا تداوينا بذكركم \*\* فإن تركناه زاد السقم و المرض

و أصحاب الطرب و الألحان عن هذا كله بمعزل ، هم في وادي و القوم في واد .  
و الضبُّ و التُّون قد يرجى التقاؤهما\*\* و ليس يُرجى التقاء الوحي و القصب  
فأين حال من يطرب على سماع الغناء و القصب بين المثلث و المثاني و ذوقه و  
وجدته إلى حال من يجد لذة السماع و روح الحال ، و ذوق طعم الإيمان إذا سمع  
في حال إقبال قلبه على الله و أنسه به و شوقه إلى لقائه ، و استعداده لفهم مراده  
من كلامه و تزييله على حاله و أخذه بحضه الوافر منه قارئاً مجيداً حسن  
الصوت و الأداء يقرأ :

بسم الله الرحمن الرحيم {طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن  
يخشى تزيلاً مِّنْ خَلْقِ الْأَرْضِ وَ السَّمَاوَاتِ الْعُلَى الرَّحْمَنِ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى  
لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا وَ مَا تَحْتَ الثَّرَى وَ إِنْ تَجَهَّرَ  
بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَ أَخْفَى} [طه: ١-٧].

و أمثال هذا النمط من القرآن الذي إذا صادف حياة في قلب صادق قد شمَّ  
رائحة المحبة و ذاق حلاوتها ، فقلبه لا يشبع من كلام محبوبه و لا يقر و لا يطمئن  
إلا به ، كان موقعه من قلبه كموقع وصال الحبيب بعد طول الهجران ، و حلَّ منه  
محلَّ الماء البارد في شدَّة الهجير من الظمِّ ، فما ظنُّك بأرض حياتها بالغيث أصابها  
وابله ، أحوج ما كانت إليه ، فأنبت فيها من كلِّ زوج بهيج ، قائم على سوقه  
يشكره و يثني عليه .

فهل يستوي عند الله تعالى و ملائكته و رسوله و الصادقين من عباده ، سماع هذا  
و سماع هذا ، و ذوق هذا و ذوق هذا ، فأهل سماع الغناء عبید نفوسهم  
الشهوانية ، يعلمون السماع طلباً للذة النفس و نيلاً لحظها الباطل ، فمن لم يميز  
بين هذين السماعين ، و الذوقين فليسأل ربه بصدق ، رغبته إليه أن يحيي قلبه

الميت ، و أن يجعل له نوراً يستضيء به في ظلمات جهله ، و أن يجعل له فرقاناً  
يفرّق به بين الحق و الباطل ، فإنه قريب مجيب .

## فصل

### في التنبيه على نكتة خفية من نكت السماع

و في السماع نكتة حقيقية أصلية يعرفها أهلها ، و يجدونها بعد انقضائه و هي أنه  
قد علم الذائقون منهم أنه ما وجد صادق في السماع الشعري و جداً ، و تحرك به  
إلا وجد بعد انقضائه و مفارقة المجلس قبضاً على قلبه ، و نوع استيحاش ، و  
أحس ببعده و انقطاعاً و ظلمة ، و لا يتفطن لهذا الأمر إلا من في قلبه أدنى حياة  
و إلا : فما لجرح بميت إيلام ، و لو سئل عن سبب هذا لم يعرفه ؛ لأن قلبه  
مغمور في السماع و ذوقه الباطل ؛ فهو غافل عن استخراج آلامه التي طرقت فيه  
، و عن أسباب فساد القلب منه ، و لو وزنه بالميزان العدل لعلم من أين أتى ،  
فاسمع الآن السبب الذي لأجله نشأ منه هذا القبض ، و هذه الوحشة ، و البعد .  
لما كان السماع الشعري أعلى أحواله أن يكون ممتزجاً بحق و باطل ، و مركباً  
من شهوة و شبهة ، و أحسن أحوال صاحبه أن تأخذ الروح حظها المحمود منه ،  
ممتزجاً بحظ النفس ، و الشيطان و الهوى فهو غير صافٍ ، و لا خالص ، فامتزج  
نصيب الصادق فيه من الرحمن بنصيب الشيطان ، و اختلط حظ القلب بحظ  
النفس ، هذا أحسن أحواله ، فإنه مؤسس على حظ النفس و الشيطان و هو فيه  
بذاته و هو نصيبه من الرحمن فهو فيه بالعرض ، لوم يوضع عليه و لا أسس عليه

فاختلط في وادي القلب الماء اليسير الصافي بالماء الكثير الكدر ، و غلب الخبيث في الطيب ، أو تجاوزا و التقت الواردات الرحمانية ، و الواردات الشيطانية. و المستمع الصاد لغلبة صدقه ، و ظهور أحكام القلب فيه يخفى عليه ذلك الوقت أثر الكدر و لا يشعر به سيِّما مع سُكر الروح به ، و غيبتها عن سوى مطلوبه ، فلما أفاق من سكره ، و فارق لذة السماع و طيبه ، وجد اللوث و الكدر الذي هو حظ النفس ، و الشيطان ، و أثر جثوم الشيطان على قلبه فأثر فيه ذلك الأثر قبضاً ، و وحشة ، و أحس به بعداً و كلما كان أصدق و أتم طلباً كان وجوده لهذا أتم و أظهر فإن استعداده هو ب حياة قلبه يوجب له الاحساس بهذا ، و لا يدري من أين أتى ، و هذا له في الشاهد نظائر و أشباه منها :

إنَّ الرجل إذا اشتغل قلبه اشتغالاً تاماً بمشاهدة محبوب أو رؤية مخوف ، أو لذة مَلَكت عليه حسّه و قلبه ، إذا أصابه في تلك الحالة ضربٌ ، أو لسعٌ أو سببٌ مؤلم ، فإنه لا يكاد يشعر به ، فإذا فارقت تلك الحالة وجد منه ألم حتى كأنه أصابه تلك الساعة ، فإنه كان في مانع يمنعه من الإحساس بالألم فلما زال المانع أحس بالألم.

### أهل الصدق إذا دخلوا في السماع الباطل

و لهذا كان بعض الصادقين إذا فارق السماع بادر إلى تجديد التوبة و الاستغفار ، و أخذ في أسباب التداوي التي يُدفع بها موجب أسباب القبض و الوحشة و البعد.

و هذا القدر إنما يعرفه أولوا الفقه في الطريق أصحاب الفِطْن ، المعتنون بتكميل نفوسهم ، و معرفة أدوائها و أدويتها و الله المستعان.

و لا ريب أن الصادق في سماع الأبيات قد يجد ذوقاً صحيحاً إيمانياً ، و لكن ذلك بمترلة من شرب عسلاً في إناء نجس.

و النفوس الصادقة ذوات الهمم العالية رفعت أنفسها عن الشراب في ذلك الإناء تقدرأ له ، ففرت منه لاستقامتها و طهارتها ، و علو همتها فهي لا تشرب ذلك الشراب إلا في إناء يناسبه ، فإذا لم يجد إناء يناسبه صانت الشراب عن وضعه في ذلك الإناء ، و انتظرت أن يليق به.

و غيرها من النفوس تضع ذلك الشراب في أي إناء انفق لها ؛ من عظام ميتة أو جلد كلب أو خنزير أو إناء خمر ، طالما ما شرب به الخمر ، أو لا يستحي

الغراب أن يشرب أطيب شراب و أذنه في هذه الآنية ؟

و لو جرّد الصادق ذلك في حال سماعه لوجد ذوقه من ذلك ، و لكن حلاوة العسل تغيب عنه نتنه و قدره و أثر قبحه على قلبه في تلك الحال ، فبعد مفارقتها يوجب له ذلك وحشةً و قبضاً ، هذا إذا كان صادقاً في حاله مع الله و كان سماعه لله و بالله.

و أما إن كان كاذباً كان سماعه للذة نفسه و حظه فهو يشرب النجاسات في الآنية القذرات و لا يحس بشيء مما ذكرناه ؛ لاستيلاء الهوى و النفس و الشيطان عليه.

و أما صاحب السماع القرآني الذي تذوّقه ، و شرب منه ، فهو يشرب الشراب الطهور ، الطيب النظيف في أنظف إناء ، و أطيبه ، و أطهره .

فالآنية ثلاثة : نظيف ، و نجس ، و مختلط.

و الشرابات ثلاثة : طاهر و نجس و ممزوج.



## القلوب ثلاثة

و القلوب ثلاثة : صحيح سليم فشرا به الشراب الطهور في الإناء النظيف ، و سقيم مريض فشرا به الشراب النجس في الإناء القذر ، و قلب فيه مادتان .  
إيمان و نفاق ، فشرا به في إناء بحسب المادتين ، و قد جعل الله لكل شيء قدراً ، فالعارف من نظر في الأسباب إلى غاياتها و نتائجها ، و تأمل مقاصدها ، و ما تؤول إليه .

و من عرف مقاصد الشرع في سدّ الذرائع المفضية إلى الحرام ، قطع بتحريم هذا السّماع ، فإنّ المرأة الأجنبية و سماع صوتها حرام ، و كذلك الخلوة بها .

## المحرمات في الشريعة

و محرمات الشريعة قسمان :

- قسم حُرِّم لما فيه من المفسدة .
  - و قسم حُرِّم لأنه ذريعة إلى ما اشتمل عليه من المفسدة .
- فمن نظر إلى صورة هذا المحرم ، و لم ينظر إلى ما هو وسيلة إليه استشكل وجه التحريم .

و الله سبحانه و تعالى أعلم ، و الحمد لله رب العالمين ، و صلى الله و سلم على سيد المرسلين محمد صلى الله عليه و سلم و على آله و أصحابه و التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين ، بمنّك و كرمك يا أرحم الراحمين .

## قال محققه — عفا الله عنه — :

"فقد منَّ الله عليَّ إذ وفقني و انتدبني لإخراج هذا السفر الجليل ، بهذه الصورة ، معتمداً في إخراجهِ على ثلاثة نُسخٍ خطيةٍ من بلدان ثلاثٍ " [ص ٠٧] ، " و هي مصر و العراق و المملكة العربية السعودية.

و الكتاب لم يُنشر سابقاً بهذه الصورة أبداً و لا هو مستلٌّ من كتاب كبير . و حقيقة هذه الرسالة هو أنها جزء من كتاب " مسألة السَّماع " و الذي نشر أيضاً بعنوان آخر — كما سيمر — و لكن هذا الجزء جاء ناقصاً عن المخطوطات ، و فيه تقديم و تأخير ، و فيه تحريف." [ص ١٩]

ثم قال : " فوجدت أن نشر هذه الرسالة بشكل مستقل و باسم مغاير هو عمل شرعي و مشروع ؛ لأسباب كثيرة أذكر منها :

أ - أن هذه الرسالة بشكلها النهائي تختلف كثيراً عن الجزء المطبوع في كتاب " الكلام على مسألة السماع".

ب - أنها لا تشبه أي كتاب أو رسالة منشورة سابقاً ، فقد استلت من كتب ابن القيم كثير من المؤلفات ، منها ما استل قديماً ، و منها ما استله

المعاصرون .. " [ص ١٩]

و أضاف قائلاً : "فهذا الكتاب لا يعتبر كتاباً مستلاً فهو لا يشبه أبداً المستلات السابقة سواء ما استل حديثاً أو قديماً ، بل هو كتاب مستقل بذاته.

ج- كتاب " الكلام على مسألة السماع " ألفه ابن القيم على مراحل فهو مكون من قسمين أو جزئين كما في مقدمة الكتاب [ص ٧٣] لمحققه راشد بن عبد العزيز الحمد.

الجزء الأول من فصلين : الفصل الأول بيان حكم الغناء في الشريعة.

الفصل الثاني : أن تعاطي السماع على وجه اللعب و الخلاعة و على وجه للقربة و الطاعة.

و ختم هذا الفصل بالموازنة بين ذوق الصلاة و ذوق الغناء.

الجزء الثاني : و اشتمل على ذكر شبه المغنين و دحضها.

و يبدو لي أن ابن القيم أجاب عن هذه الفتيا في سنة [ ٧٤٠هـ — ] ثم بعد فترة أضاف لها الجزء الثاني و دليل ذلك قول ابن القيم في بداية الجزء الثاني [ ص ٢٣٣ ] : قال الشيخ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الحنبلي إمام الجوزية في تمام الجواب عن الفتيا الواردة في السماع سنة أربعين و سبعمائة التي أجاب فيها العلماء على المذاهب الأربعة رضي الله عنهم أجمعين.

أي أن ابن القيم ألف كتابه على مرحلتين .

و رسالتنا هذه مستلة من نهاية الجزء الأول و فصله الأخير ، بقي هناك سؤالاً لماذا كل هذه الاختلافات في النسخ بين المطبوع و المخطوط ، و بين نفس المخطوط؟

و أقرب جواب وقع لي هو : أن ابن القيم نفسه استل هذه الرسالة ثم نقحها أكثر من مرة.

و مع وقوع السقط و التحريف من النساخ ، و كثرة النسخ المنقحة و المصححة من ابن القيم نفسه.

جعل هذا الاختلاف الكبير بين النسخ.

فهني إذن رسالة استلها ابن القيم نفسه و نقحها و أعاد النظر فيها عدّة مرات و أضاف و حذف و قدّم و أخر . و أصبحت على شكلها الحالي . هذه الأسباب الثلاثة هي التي دفعتني لنشر هذه الرسالة بشكل مستقل . [ص ٢١-٢٢].

انتهى